مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٩، العدد ٣٤ (ربيع ١٩٩٨)، ص ١٤٠

الشهادة السادسة[١]

"وصل عبد الرحمن ومعه جدتي... بندقيته على
كتفه، ويمشي متثاقلاً"

ـ الاسم: عبد الله الدنان
ـ العمر: ٦٦ عاماً
ـ مكان الإقامة الحالي: دمشق/سورية
ـ البلد الأصلي: صفد
ـ تاريخ الاحتلال: ١١ ـ ١٩٤٨/٥/١٢

إن الثامن من أيار/مايو ١٩٤٨ يوم لا ينسى في حياتنا نحن أهالي مدينة صفد في فلسطين. كان التوتر على أشده في أوساط العرب، وكان النقاش مستمراً بين جميع فئات الشعب بشأن ما يمكن عمله لمجابهة الخطر المحدق بالمدينة، بعد أن هاجم اليهود قريتي بيريا وعين الزيتون اللتين تقعان إلى الشمال من المدينة على بعد لا يتجاوز ٤ كلم، إذ كان واضحاً أن الهجوم على المدينة أصبح وشيكاً.

كان البعض يرى أننا يجب ألاّ نغادر بيوتنا مهما يكلف الأمر، وأنه ينبغي لنا أن نصمد ونقاتل بكل الوسائل حتى آخر قطرة من الدماء، وأن صمودنا هذا يجب أن يستمر إلى الخامس عشر من أيار/مايو على الأقل، فإذا دخلت الجيوش العربية، ووصلت إلى صفد القريبة جداً من الحدود السورية والحدود اللبنانية، تأكدت سلامة المدينة وتم النصر لنا في الشمال وفي أنحاء فلسطين كلها.

لكن البعض الآخر رأى أن خروج المدنيين من المدينة قبل حلول الخامس عشر من أيار/مايو سيخفف من الخسائر في صفوفهم، لأن اليهود كانوا يقصفون المساكن والأبنية ويوقعون الخسائر في صفوف المدنيين العزل، ولم يكونوا يستهدفون المقاتلين فقط.

---

[١] أعدّها فايز سارة. وقد أُجريت المقابلة في دمشق، في شباط/فبراير ١٩٩٨.

لا بد من أن نذكر هنا أن النقاشات هذه لم تكن تتم على مستوى قيادة مركزية مطاعة، ينفذ الناس قراراتها بشأن بقائهم أو خروجهم، وإنما كان هذا ما يدور بين الأقارب الذين ينتمون إلى عائلة واحدة، أو بين العائلات المتجاورة أو المتصاهرة.

كان اليهود يدركون جيداً خيارات العرب التي تحدثنا عنها، فحرصوا حرصاً شديداً على بذل كل ما لديهم من قوة عسكرية وأساليب وحيل كي يستولوا على المدينة خالية من سكانها.

أمّا الرأي الذي تبناه سكان صفد جميعاً وبلا استثناء، فقد كان متأثراً بكل ما سبق عرضه من أطروحات بالإضافة إلى الواقع الذي واجهوه في ليالي الهجوم على صفد.

إن ما سأرويه هنا من وقائع وتفصيلات تتعلق بعائلتنا نحن "آل دنان"، ينطبق على أهالي صفد كلهم، ولا يكاد يتباين إلاّ فيما يختص بالأسماء وببعض التفصيلات الصغيرة.

تتكون عائلتنا من أربع أُسر، إحداها أسرتنا نحن وثلاث أسر لأعمامي، إخوة والدي. ضمت هذه العائلة، المكونة من أربع أسر، ستة وثلاثين فرداً منهم أربعة رجال هم أرباب الأسر أعمارهم كالتالي: أحمد (٥٨ عاماً)؛ حسين (٥٢ عاماً)؛ مصطفى (٤٨ عاماً)؛ حسن (٤٠ عاماً)؛ وأربعة شباب فوق الثامنة عشرة هم: أخي محمود (١٨ عاماً)، وابن عمي عبد الرحمن (٢٥ عاماً)، وأخوه سليمان (٢٠ عاماً)، وأخوه صلاح (١٨ عاماً). أما الباقون وعددهم ثمانية وعشرون فرداً، فهم نساء وبنات وأطفال دون السادسة عشرة من العمر، بل إن معظمهم كان دون العاشرة من العمر.

كانت الأسر الأربع تسكن في بيوت متلاصقة ليس بينها حواجز؛ فالباب الخارجي لهذه البيوت جميعاً واحد، إذا دخلت منه أصبحت في الساحة المؤدية إلى أبواب غرف النوم، وغرف الضيوف.

كما أن الأحوال المادية لهذه الأسر كانت متقاربة. فهي متوسطة الحال، ثلاثة من رجالها يملكون دكاكين تبيع الأقمشة بالمفرق، وواحد (هو حسن) يعمل حجّاراً. لم يملك أي من هذه الأسر فائضاً من المال، وكان دخل كل أسرة يكفيها لتغطية متطلبات العيش، إلاّ إن الأحوال ساءت بعد إصدار الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارها بتقسيم فلسطين في ١٩٤٧/١١/٢٩، أي قبل نحو سبعة أشهر من التاريخ الذي نتحدث عنه، وهو الثامن من أيار/مايو ١٩٤٨. وقد أدى سوء الأحوال وحصار المدينة إلى بدء نفاد

المؤن لدى هذه الأسر، فلم يبق لدى أسرتنا بالذات سوى عشرة كيلوغرامات من الطحين، وشيء قليل جداً من البرغل والسكر والزيت والكاز (الكيروسين الذي كان يُستخدم لإشعال النار في "البريموس"، وهو الجهاز المستخدم للطبخ). وعلى الرغم من سوء الأحوال فقد استطاعت هذه العائلة (أي الأربع أسر مجتمعة) أن تشتري قطعتين من السلاح: بندقية إنكليزية ومسدساً. وهكذا كان على كل عائلة من عائلات صفد أن تؤمن ما تستطيع من السلاح والذخيرة للدفاع عن الوطن، هذا بالإضافة إلى تقديم شبانها القادرين على حمل السلاح.

وكانت هاتان القطعتان يتداولهما أربعة من أفراد العائلة وهم القادرون على حملهما، وذلك وقت الحراسة الليلية على مشارف المدينة المحاذية لحارة اليهود، والتي يتوقع أن تبدأ منها هجمات العدو المنتظرة.

ولا بد هنا من ملاحظة أنه لم يكن أحد من أفراد العائلة قد تدرب على حمل السلاح من قبل، وذلك لأن القانون المطبق في فلسطين منذ سنة ١٩٢٩ يقضي بمعاقبة كل من وجد من العرب في حيازته قطعة سلاح بالإعدام. أمّا اليهود فكان لهم قوات نظامية مدربة بحجة الدفاع عن النفس، كما كان لدى هذه القوات أسلحة وذخائر متفوقة على ما في أيدي العرب.

ليلة الثامن من أيار/مايو، وكانت الساعة تقارب التاسعة مساء، بدأت الطلقات المكثفة تمزق الليل، والانفجارات العنيفة تصم الآذان.

أسرعنا جميعاً (الأُسر الأربع)، وتجمعنا في الطبقة الأرضية من بيت عمي، لأن بيوتنا الأُخرى كانت تتألف من طبقة واحدة، ويمكن للقذائف أن تخترق سطوحها. استمر القصف وتتابع لهاث القنابل وانفجارها، وكان دويها هائلاً ومرعباً. لم يكن ابن عمي عبد الرحمن معنا، وإنما كان عند المتاريس المواجهة لحارة اليهود من جهة موقع "أبو قميص" الذي كان يهاجمه اليهود. كان هذا الموقع يبعد مئة متر فقط عن المكان الذي نحن فيه، وكان واضحاً أن الهجوم تركز على منطقتنا لأنها تقع على مفترق الطرق الواقع في مدخل المدينة عند موقع "أبو قميص". كان يصل إلى هذا المفترق الشارع القادم من حيفا والذي يتفرع إلى ثلاثة شوارع: الأول، يؤدي إلى القسم العربي من المدينة، والثاني إلى القسم اليهودي، والثالث إلى شارع القلعة. وكان عدد من مناضلينا قد احتل عمارة فؤاد الخولي الواقعة على المفترق تماماً، كما كان يحتل

القلعة المسيطرة على القسمين العربي واليهودي من المدينة، بالإضافة إلى عمارة صالح عبد الغني الواقعة بين القلعة وعمارة فؤاد الخولي.

كان واضحاً جداً أن اليهود سيهاجمون المواقع الثلاثة هذه لأنها تتحكم في المدينة، بقسميها العربي واليهودي؛ وكان القسم اليهودي يقع في الثلث الشمالي الغربي من سفح القلعة.

كانت المسافة بين بيوتنا والمواقع التي ذكرتها قصيرة ولا تتجاوز مئة متر. استمر إطلاق الرصاص في المواقع، كما استمر إطلاق قنابل الهاون وراجمات الألغام[٢] على البيوت العربية بكثافة طوال الليل. سقطت فوق بيت جيراننا قنبلة من راجمات الألغام أحدثت حفرة في السقف، كما سقطت عدة قنابل هاون في حارتنا، لكن لم تقع إصابات. كانت مقاومة المناضلين التي استمرت حتى الفجر عنيفة جداً، وبعد الفجر توقف الهجوم وهدأت أصوات الرصاص إلاّ من طلقات بعيدة. وسمعت صوت أحد الشبان العرب، وهو يقول: "رُدوا على أعقابهم خاسرين." فقال جميعنا: "الحمد لله". بعد ساعة، وقبل طلوع الشمس، عاد ابن عمي عبد الرحمن يحمل بندقيته على كتفه.

دخل البيت متثاقلاً مرهقاً، والحزن بادٍ على وجهه. سأله عمي: "ها.. شو صار؟" قال عبد الرحمن: "الليلة رددناهم والله أعلم بالباقي.. رصاصنا جميعاً في الموقع بدأ ينتهي، وأنا لم يبق معى سوى ثلاث رصاصات." بهذه الكلمات أنهى حديثه، واستلقى على فراش رقيق فتركناه ينام. وبقي أعمامي وأبي يتحدثون، وكنت أستمع إليهم. كانت الشكوى المرّة والدائمة هي قلة الذخائر.

في المساء استعد عبد الرحمن للذهاب إلى الموقع، ولم يكن معه سوى ثلاث رصاصات. نظر الجميع إليه في دهشة، وسألوه ماذا سيفعل بهذه الرصاصات فقال: "وعدونا أن يعطونا (رصاص) اليوم، لأننا نتوقع وصول بعض الذخائر عن طريق وادي الطواحين."

كنا سمعنا أن المحامي صبحي الخضراء واثنين من زعماء صفد، رحمهم الله، ذهبوا لشراء أسلحة وذخائر بتبرعات جُمعت من أهالي المدينة، كانت آخر ما تبقى لديهم من نقود. كما سمعنا أنهم لم يجدوا طلبهم في سورية فتوجهوا إلى مصر، ولمّا لم

---

[٢] عبارة عن ماسورة من الحديد السميك يبلغ قطرها ٢٠ سم تقريباً، كانت تُملأ بالمواد المتفجرة والقطع الحادة وتُقذف كما تُقذف قنابل الهاون.

يجدوه هناك أيضاً توجهوا إلى ليبيا حيث بعض الناس هناك لا يزال يختزن ذخائر من مخلفات الحرب العالمية الثانية، وهذه الذخائر مضى عليها سبعة أعوام على الأقل.

تأخرت عودة صبحي الخضراء والزعيمين الآخرين بالذخائر الموعودة، ومضت ليلة الهجوم الأولى من دون أن يحتل اليهود أي موقع. وأخذ شباننا ينتظرون الذخائر بفارغ الصبر وبدأوا يعدون الدقائق والساعات.

في الليلة الثانية، وعند حلول الظلام، عاود اليهود الهجوم على المواقع نفسها، وبدأت مدافع الهاون وراجمات الألغام تقذف المساكن الآهلة مرة أُخرى، وعدنا إلى التجمع في الطبقة الأرضية، وانضمت إلينا بنت عمتي من آل الهواش ووالدتها.

كنا نسمع طلقات الرصاص بوضوح، ونميز أصوات رصاصهم من أصوات رصاصنا. فالأصوات المتلاحقة رشاً بغير انقطاع هي حتماً صادرة عن المهاجمين. وأمّا أصوات الطلقات المنفردة فهي الصادرة عن شباننا المدافعين.

كان عبد الرحمن قد ذهب إلى موقعه بثلاث رصاصات فقط على أمل أن تصلهم الذخائر في أية لحظة، وهذه المرة أخذ المسدس أيضاً. وكانت قلوبنا معه ومع أبناء الحارة المدافعين في الموقع.

استمر القصف وتتابعت طلقات الرشاشات على المواقع جميعها، وأمضينا ليلتنا في الطبقة الأرضية من دون أن يغمض لأحد منا جفن، ما عدا الصغار الذي كانوا يغفون ساعة أو بعض الساعة ثم يفتحون أعينهم، ويصرخون مذعورين وهم يتشبثون بأمهاتهم اللواتي فاضت أعينهن، ولم تتوقف ألسنتهن عن الدعاء إلى أن أصبح الصباح. وهنا توقف الضرب وسكتت المدافع وراجمات الألغام، وخرجنا من المكان الذي كنا فيه، وعدنا إلى بيوتنا، لكننا تجمعنا في صحن الدار ننتظر عودة عبد الرحمن وقلوبنا ترتجف خوفاً عليه.

بعد قليل سمعنا طرقاً على الباب، فقال عمي: "هذا عبد الرحمن.. روحوا افتحوا." فُتح الباب ودخل عبد الرحمن. كان وجهه أصفر من شدة الإرهاق.. وكان يمشي بتثاقل شديد. سأله عمي السؤال المعهود:

ـ "ها.. شو صار؟" أجاب عبد الرحمن: "شو صار؟... رحنا نروح كلنا."

ـ "يا لطيف.. ليش؟.. راح أحد.. في إصابات؟"

ـ "إصابات ما في.. لكن أنا ما عاد معي ولا رصاصة.. أخذت شوية رصاص من فوزي سويد.. وهو كمان قرّب رصاصه يخلص."

ـ "وبعدين.. شو الحل؟"

ـ "ما بعرف.. بيقولوا الذخائر يمكن توصل اليوم."

قعد أعمامي ووالدي في فناء الدار، وقعدنا نحن حولهم.. وكان في ذهن كل منا سؤال واحد يلح ولا يهدأ:

"ما العمل؟"

بدأ عمي الكبير أحمد وقال: "ها.. شو نسوّي؟"

قال عمي حسن: "سمعت إنو في ناس بدأوا يطلعوا."

. "يطلعوا.. وين يروحوا".

. "ما بعرف يمكن وادي الطواحين.. لكن سمعت كمان إنو بعض المناضلين كانوا يحاولوا يرجعوهم."

. "وبعدين إحنا شو نسوّي؟"

. "نبقى في بيوتنا حتى يفرجها الله."

. "وإذا دخل اليهود وبدأوا بالذبح والقتل؟"

. "خلونا نطلع على وادي الطواحين ونظل هناك حتى تصل الذخائر.. أو تدخل الجيوش العربية."

. "وإذا الجيوش العربية ما انتصرت؟"

قال عمي حسين بالحرف الواحد: "هذا مش معقول.. هذا حكي ما بيدخل بالعقل. هل من المعقول إنو كل هالحكي اللي منسمعه بالإذاعة كذب؟"

ولم يطل النقاش كثيراً، إذ قرر الجميع أن لا بد من الخروج، وقرروا أيضاً أن يبقى عبد الرحمن، وأن تبقى جدتي معه، وبدأ التهيؤ للخروج إلى وادي الطواحين، والانتظار هناك.

أصعب وأقسى ساعات عمرنا جميعاً هي تلك التي كنا نهيىء أنفسنا فيها للرحيل والخروج من بيوتنا. كنا جميعاً في حيرة، ماذا نأخذ معنا.. كانت تنتابنا هواجس بأننا ربما لن نرى بيوتنا مرة أُخرى.. أجلت عينيّ في زوايا البيت مودِّعاً.. ودّعت الفراش؛ ودّعت صندوق أمي الذي أحضرته عند زفافها والذي كانت تضع فيه اللوز والبندق؛ ودّعت الأدراج التي كنت أضع فيها كتبي.. لكن لماذا أنا أودّع هكذا بألم شديد.. ألم يقولوا نحن راجعون؟

كان والدي حزيناً جداً وهو يتهيأ للرحيل، لكنه كان واثقاً بالعودة بعد أيام. كان حريصاً أن يأخذ مؤونته من الطحين والبرغل والزيت، ولم يفكّر قط في أن يأخذ شيئاً من الأقمشة الغالية من الدكان والتي كانت تساوي أضعاف أضعاف وزنها من الطحين الذي حملناه، هذا مع العلم أنه لم يكن لديه من النقود سوى خمسة وثلاثين جنيهاً فلسطينياً.

كان أخي محمود طوال الوقت جامداً لا يتحرك، ولا يعاون على جمع الإغراض، وكنت أنا وإخوتي نساعد أبي وننفذ ما يطلبه منا. أمّا أمي فلم تكن تستطيع أن تفعل شيئاً. كانت هي وجدتي تبكيان بكاءً صامتاً.

انتهينا من الاستعداد، ولا تزال الصورة محفورة في ذاكرتي، محمود يقف عند باب البيت مصراً على البقاء، ووالدي يقول له: إحمل أخاك الصغير جميل (عامان). وبعد تردد وتدخّل منا جميعاً حمل محمود أخاه الصغير، وتهيأنا جميعاً. حملت أنا كيس الطحين، وحملت أختي سلمى التي تصغرني السلة التي فيها أدوات الطبخ، وحملت كل من فايزة وفوزية كيساً صغيراً، أمّا أمي فلم تحمل شيئاً.

تأكد والدي من أن مفتاح الدكان في جيبه، وأوصى جدتي بأن تنتبه وطمأنها إلى أننا راجعون بعد أيام.

وكان أعمامي قد فعلوا مثلنا تماماً، وحملوا هم أيضاً مؤناً تكفيهم أسبوعاً ولم يأخذوا من دكاكينهم شيئاً. لقد أقفلوها ووضعوا المفاتيح في جيوبهم. وبدأنا السير جميعاً.

كانت الطريق المؤدية إلى وادي الطواحين تمر بحارة "الوطاة". وكانت هذه الطريق ضيقة ومنحدرة، وقد تعثر الأطفال وسقط بعضهم على الأرض لدى عبورهم. وعندما وصلنا إلى بداية الوادي كان علينا أن نجتاز جسراً ضيقاً غير محمي من جانبيه، وبما أنه كان مزدحماً بالمارة فقد كادت والدتي تسقط في الماء لو لم يمسك بها والدي وأخي محمود. تابعنا سيرنا في اتجاه ميرون إلى أن وصلنا إلى سفح الجبل المطل على الوادي من الناحية الغربية، وهناك وجدنا مئات من الناس الذين سبقونا وحطوا رحالهم. ولدى وصولنا اخترنا مكاناً نهيئه للإقامة الموقتة، كما كان في تصورنا.

لم يمض وقت طويل حتى بدأت قطرات خفيفة تتساقط علينا من السحب القليلة التي أصبحت فوقنا، والتي كانت وراءها غيوم كثيفة تنذر بمطر شديد.

كان والدي سريعاً في اتخاذ القرار فقال لخالي وأعمامي: "أنا أرى أن نأخذ سيارة ونذهب إلى بنت جبيل [بلدة في لبنان] قبل أن يفوت الوقت."

وصلنا إلى بنت جبيل عند العصر. كانت تكتظ بالقادمين إليها من صفد وعكا وحيفا. بدأنا نشاهد ونعي معنى الرحيل ومغادرة الوطن. استأجرنا وأعمامي بيوتاً متقاربة، وكان إيجار البيت مرتفعاً، إذ كنا ندفع جنيهاً واحداً في الليلة، لذا اضطررنا إلى استئجار غرفة واحدة بسيطة وصغيرة. أمضينا الليلة الأولى، وبدأنا نعد الأيام والساعات. أشرق يوم الحادي عشر من أيار/مايو ونحن في بنت جبيل، وكان ذلك أول صباح يمرّ علينا خارج مدينتنا صفد. بقي أربعة أيام، وبعدها يأتي الخامس عشر من أيار/مايو، وبعده بيومين أو ثلاثة أيام نرجع إلى بيوتنا.

مساء ذلك اليوم، الحادي عشر من أيار/مايو، وردت أخبار مع القادمين، أن المواقع جميعها سقطت في أيدي اليهود، وأن المدينة بدأت تخلو من السكان. كان الخبر صاعقاً، بل قاتلاً. إلاّ إن الأمل بقي معلقاً على يوم الخامس عشر من أيار/مايو.

كنا قلقين جداً على عبد الرحمن وجدتي. وفي صباح اليوم التالي خرجنا إلى مدخل بنت جبيل الذي كان يزدحم بالقادمين من صفد وغيرها.

في الساعة العاشرة تقريباً، وصل عبد الرحمن ومعه جدتي. كانت ملابسه ملطخة بالطين، ورأسه معفراً بالتراب والطين، وكان يضع بندقيته على كتفه، ويمشي متثاقلاً، والحزن الشديد بادياً على وجهه. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf